

## الحرب في الإسلام

قال الله تعالى :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَنتَحِسْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَانَ فِإِمَامًا بَعْدَ إِمَامٍ فَدَاةَ حَتَّىٰ تَضَعَ الْمَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَيْنَاكُمْ مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لَّبَلُوا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿١﴾ سَيَجِدُ يَوْمَ يُضَلِّحُ بِطَنَهُمُ ﴿٢﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾ .

(سورة محمد)

### التحليل اللغوي

أنتحتموهم : أكثرتم فيهم القتل والجراح ، يقال : أنتحن العدو : إذا أكثر فيه الجراح .  
قال في اللسان : والإنتخان في كل شيء قوته وشدته ، يقال : قد أنتحنه المرض إذا اشتدت قوته عليه ووهته ، وأنتخته الجراحة : أوهنته ، وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يُنْجِخَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، معناه : حتى يبالغ في قتل أعدائه (١) .

الوئاق : الوئاق : في الأصل مصدر كالخلاص ، وأريد به هنا ما يوثق به أي ما يربط به كالحبل وغيره .

قال في اللسان : والوئاق اسم الإيشاق ، نقول : أوثقته إيشاقاً ووئاقاً ، والحبل أو الشيء الذي يوثق به (وئاق) والجمع الوئوق بمنزلة الرباط والرُّبُط (٢) .

(١) لسان العرب — مادة (نخن) .

(٢) لسان العرب — مادة (وتق) .

وقال الجوهري: وأوثقه في الوثاق: أي شدّه، ومنه قوله تعالى:

﴿فشدوا الوثاق﴾، والوثاق بكسر الواو لغة فيه<sup>(١)</sup>. اهـ.

والمراد في الآية الكريمة: أسر الأعداء لئلا يفلتوا.

متأً: مصدر من ومعناه: أن يطلق سراح الأسير بدون فداء، وبدون مقابل. قال الشاعر:

ما كان ضرّك لو مننتَ وربما من الفتى وهو المغيظ المُحنق<sup>(٢)</sup>

فداء: مصدر فادى، والفداء أن يطلق الأسير مقابل مالٍ يأخذه منه.

قال في اللسان: الفداء بالكسر: فكاك الأسير، والعرب تقول: فاديت

الأسير وتقول: فديته بمالي، وفديته بأبي وأمي، إذا لم يكن أسيراً، وإذا كان

أسيراً مملوكاً قلت: فاديته، قال الشاعر:

ولكنني فاديتُ أُمي بعدما علا الرأس منها كُبرةً ومشيّب

أوزارها: الأوزار جمع وِزر، وهو في الأصل: الإثم والذنب، ويطلق على الحمل

الثقيل، والمراد به آلات الحرب وأثقالها من السلاح، والخيول، والعتاد،

وسمي السلاح «أوزاراً» لأنه يُحمل لثقله، قال الأعشى:

وأعددتُ للحرب أوزارها رماحاً طوالاً، وخيلاً ذكوراً<sup>(٣)</sup>

وإنما جاء الضمير مؤنثاً (أوزارها) لأن الحرب مؤنثة.

ومعنى الآية: حتى تنتهي الحرب، وتضع سلاحها، فلا يكون قتال مع

المشركين لضعف شوكتهم.

ذلك: اسم الإشارة «ذلك» جيء به للفصل بين كلامين، وقد كثر في لغة العرب

استعمال اسم الإشارة عند الفصل بين كلامين، والانتقال من الكلام الأول

(١) الصحاح للجوهري، وانظر القرطبي ٢٢٦/١٦.

(٢) البيت من قصيدة لأخت النضر بن الحارث، حين قتل أخوها تخاطب بها النبي ﷺ.

(٣) غريب القرآن ٤٠٩/٢، والقرطبي ٢٢٩/١٦، وانظر «الصحاح» و«اللسان» - مادة (وزر).

للثاني . كأنه قيل : ذلك ما كنا نريد أن نقوله في هذا الشأن ، ونقول بعده  
كذا . وكذا .

الانتصر منهم : أي انتصر منهم بدون أن يكلفكم بحرب أو قتال ، فالله سبحانه قادر  
على إهلاك الكفار بدون حرب المسلمين لهم ، ولكنه ابتلاء من الله سبحانه :  
﴿ **وَلْيَلْبِؤُنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ** ﴾ .

قال الألوسي : قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ** ﴾ أي لانتقم  
منهم ببعض أسباب الهلاك من خسف ، أو رجفة ، أو غرق ، أو موت  
جارف <sup>(١)</sup> .

ليبلو بعضكم ببعض : أي أمركم سبحانه بالحرب (ليبلو بعضكم ببعض) فيثيب  
المؤمن ويكرمه بالشهادة ، ويُخزي الكافر بالقتل والعذاب ، والابتلاء في  
اللغة : الامتحان والاختبار .

يُضَلَّ أعمالهم : أي فلن يضيع أعمالهم بل ستحفظ وتخلد لهم ، ويُجزون عليها  
الجزاء الأوفى يوم الدين .

عرَّفها لهم : أي بيَّنها لهم وأعلمهم منازلهم فيها فلا يخطئونها ، أو عرَّفها لهم في  
الدنيا بذكر أوصافها ، كما قال تعالى : ﴿ **مِثْلَ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا**  
**أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ . . .** ﴾ الآية .

### المعنى الإجمالي

يأمر الله سبحانه المؤمنين عند لقاء الكفار في الحرب ، ألا تأخذهم شفقة  
عليهم ، بل ينبغي أن يُحكِّموا السلاح في رقابهم ، ويحصدوهم بسيوفهم حصداً ،  
حتى إذا غلبوهم ، وقهروهم ، وكسروا شوكتهم ، عند ذلك عليهم أن يشدوا الوثاق  
وهو كناية عن وقوعهم أسرى في أيدي المؤمنين ، فإذا انتهت الحرب فالمؤمنون عند  
ذلك بالخيار ، إما أن يمَّنوا على الأسرى فيطلقوا سراحهم بدون عوض ، وإما أن

(١) روح المعاني للألوسي ٤٢/٢٦ .

يأخذوا منهم الفداء ليستعين به المسلمون على مصالحتهم، بعد أن تضعف عزائم المشركين وتكسر شوكتهم.

ثم بين الله سبحانه الحكمة من مشروعية القتال مع قدرته تعالى أن يتصر من أعدائه من غير أن تكون حرب بين المؤمنين والكافرين، وتلك الحكمة هي امتحان الناس، واختيار صبرهم على المكاره، واحتمالهم للشدائد في سبيل الله: ﴿**إم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين**﴾.

ثم بين الله تعالى بعد ذلك أن الذين أكرمهم الله بالشهادة في سبيله، ستحفظ أعمالهم، وتخلد لهم، ثم هم بعد ذلك في روضات الجنات يُحبرون، وفي ذلك حضُّ على الجهاد، وترغيب للخروج في سبيل الله لينال المؤمن إحدى الحسنيين: إما النصر والعزة في الدنيا، وإما الشهادة في سبيل الله.

### وجوه القراءات

أولاً: قوله تعالى: ﴿**فشدوا الوثاق**﴾، قرأ الجمهور (الوثاق) بفتح الواو، وقرئ (الوثاق) بالكسر وهو اسم لما يوثق به.

قال الألوسي: «ومجيء (فعال) اسم آلة كالجزام والركاب نادر على خلاف القياس، وظاهر كلام بعضهم أن كلاً من المفتوح والمكسور اسم لما يوثق به»<sup>(١)</sup>.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿**وإما فداء**﴾ قرأ الجمهور بالمد، وقرأ ابن كثير (وإما فدى) بالفتح والقصر كعصا.

قال أبو حاتم: لا يجوز قصره لأنه مصدر فاديته.

قال الشهاب: ولا عبرة به فقد حكى الفراء فيه أربع لغات الفتح والكسر، مع المد والقصر<sup>(٢)</sup>.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿**والذين قُتلوا في سبيل الله**﴾ قرأ الأعمش وحفص عن

(١) روح المعاني ٣٩/٢٦.

(٢) الألوسي ٣٩/٢٦، والبحر المحيط ٧٥/٨.

عاصم (قُتلوا) بتخفيف التاء مبنياً للمجهول، وقرأ الجمهور (قاتلوا) بألف مبنياً للمعلوم<sup>(١)</sup>.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ قرأ عليّ كرم الله وجهه (يُضِلُّ) مبنياً للمفعول، و (أعمالهم) بالرفع نائب فاعل، وقرئ (يُضِلُّ) بفتح الياء من ضَلَّ وأعمالهم فاعل. وقرأ الجمهور (يُضِلُّ أعمالهم) أي لن يُضِلَّ الله أعمالهم بمعنى لن يضيعها.

خامساً: قوله تعالى: ﴿عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ قرأ الجمهور بتشديد الراء، وقرأ أبو رجاء وابن محيصن (عَرَفَهَا لَهُم) بتخفيف الراء<sup>(٢)</sup>.

### وجوه الإعراب

أولاً: قوله تعالى: ﴿فَضْرَبَ الرَّقَابَ﴾ منصوب على المصدرية، أي اضربوا ضرب، فهو مفعول مطلق لفعل محذوف، وهو من إضافة المصدر للمفعول، والأصل: اضربوا الرقاب ضرباً، فحذف الفعل وقُدِّم المصدر، وأنيب منابه مضافاً إلى المفعول، وحذف الفعل في مثله واجب كما تبَّه عليه علماء النحو.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ منَّا وفداء منصوبان على المصدر أي: إمَّا أن تمنوا عليهم منَّا، أو تقادوهم فداءً، فهو كسابقه مفعول مطلق لفعل محذوف وحذف الفعل الناصب للمصدر واجب كذلك، ومنه قول الشاعر:

لأجهذَنَ فإمَّا درة واقعةٍ تُخشى وإمَّا بلوغُ السُّؤلِ والأملِ

وجوز أبو البقاء كون كل من (منًّا) و (فداءً) مفعولاً به لمحذوف تقديره: تولوهم منَّا، أو تقبلوا منهم فداءً، ولكنَّ أبا حيان ردَّ هذا بأنه ليس إعرابٌ نحويٌّ<sup>(٣)</sup>.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ ذلك، في موضع رفع لأنه خبر

(١) زاد المسير ٣٩٨/٧، والبحر المحيط ٧٥/٨.

(٢) زاد المسير ٣٩٨/٧.

(٣) البحر المحيط ٧٥/٨، وروح المعاني ٣٩/٢٦.

لمبتدأ محذوف وتقديره: الأمر ذلك أو الحكم ذلك<sup>(١)</sup>.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ جملة (عرَفَهَا لَهُمْ) في موضع نصب على الحال، والتقدير ويدخلهم الجنة معرفة لهم.

### لِطَائِفِ التَّفْسِيرِ

اللطفية الأولى: عبّر القرآن الكريم عن القتل بقوله تعالى: ﴿فَضْرِبَ الرِّقَابَ﴾ والسّر في ذلك أنّ في هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ (القتل) لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة، وهو حَزُّ العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن، وأشرف أعضائه، ومجمع حواسه، وبقاء البدن ملقى على هيئة منكّرة، والعياذ بالله تعالى، ولو قال: (فاقتلوهم) لَمَا كان هذا المعنى الدقيق.

والتعبير أيضاً يوحي بشجاعة المؤمنين وأنهم من الكفار كأنهم متمكنون من رقابهم، يُعملون فيهم سيوفهم بضرب الأعناق، وهو (مجاز مرسل) علاقته السببية لأن ضرب الرقبة سبب الموت.

اللطفية الثانية: قوله تعالى: ﴿فَنَسُدُّوهُمُ الْوَتَانَ﴾ كناية عن الأسر أي اجعلوهم أسرى واحفظوهم رهائن تحت أيديكم، حتى تروا فيهم رأيكم، ولما كانت العادة أن يربط الأسير لئلا يهرب جاء التعبير بقوله: ﴿فَنَسُدُّوهُمُ الْوَتَانَ﴾ وفيه الإشارة إلى الكفّ عن القتل والاكتفاء بالأسر، لأنّ الشريعة الغراء تنهى عن الإجهاز على الجريح، وذلك من آداب الإسلام وتعاليمه الإنسانية الرشيدة.

اللطفية الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا مَتَّأ بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾، ذكر تعالى: (المنّ والفداء) ولم يذكر القتل والاسترقاق، وفي ذلك إرشاد من الله تعالى إلى أن الغرض من الحرب كسر (شوكة المشركين)، لا إراقة الدماء والتشفي بلإزهاق الأرواح، فإذا ضعفت شوكة المشركين ووهنت قواهم فلا حاجة إلى القتل، وتقديم (المنّ) على (الفداء) في الآية الكريمة للإشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال،

(١) البيان في غريب إعراب القرآن ٢/٣٧٤.

فالمجاهد في سبيل الله يقاتل لإعلاء كلمة الله، لا للمغنم المادي والكسب الدنيوي.

اللطفية الرابعة: قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ في الآية الكريمة إشارة إلى أن الإسلام يكره الحرب ويمقتها، لأنها مخربة مدمرة، والتعبير بـ (أوزارها) للإشارة إلى أن ما فيها من آثام إنما ترجع على الذين أشعلوها وهم الكفار، المحاربون لله ورسوله، فلولا كفرهم وإفسادهم في الأرض لما كانت هناك حرب.

قال الإمام الفخر: (والمقصود من وضع الحرب أوزارها، انقراض الحرب بالكلية بحيث لا يبقى في الدنيا حزب من أحزاب الكفر، يحارب حزباً من أحزاب الإسلام، وإنما قال: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، ولم يقل: حتى لا يبقى حرب، لأن التفاوت بين العبارتين كالتفاوت بين قولك: انقرضت دولة بني أمية، وقولك: لم يبق من دولتهم أثر، ولا شك أن الثاني أبلغ، فكذا ههنا)<sup>(١)</sup>.

اللطفية الخامسة: فإن قيل: لماذا لم يهلك الله الكافرين مع قدرته عليهم وأمر المؤمنين بالجهاد؟

فالجواب: أن الله عز وجل أراد بذلك أن يختبر عباده، فابتلى المؤمنين بالكافرين، ليختبر صبرهم على المكاره، واحتمالهم للشدائد، وابتلى الكافرين بالمؤمنين، ليظهر الأرض من رجسهم، وينيل المؤمنين الشهادة في سبيله بسببهم، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾.

فإن قيل: إن الله يعلم المؤمن من الكافر، والبّر من الفاجر، والمطيع من العاصي، فما هي فائدة هذا الابتلاء؟ فالجواب أن الابتلاء من الله تعالى ليس بقصد العلم والمعرفة، وإنما هو بقصد إثابة المؤمن، وتعذيب الكافر، بعد إقامة الحجة عليه، حتى يقطع العذر على الإنسان، أو نقول: إن الابتلاء غرضه الكشف للناس، أول للملائكة، ليظهر لهم الصادق من المنافق، والتقي من الشقي، وليس بالنسبة له تعالى، لأنه بكل شيء عليم.

(١) عن التفسير الكبير للفخر الرازي ٥٢٩/٧ بتصرف.

اللطفية السادسة: أمر الله تعالى بالمنّ أو الفداء، وهذا من مكارم الأخلاق التي أرشد إليها الإسلام، روي أن الحجاج حين أسر أصحاب (عبد الرحمن بن الأشعث) وكانوا قريباً من خمسة آلاف رجل، قتل منهم ثلاثة آلاف فجاءه رجل من (بندة) فقال: يا حجاج لا جزاك الله عن السنة والكرم خيراً! قال: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ، حَتَّى إِذَا أَتَّخَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الرِّبَاطَ، فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً﴾، في حق الذين كفروا... فوالله ما منتت، ولا فديت؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أنقل الأعناق حمل المغارم

فقال الحجاج: أف لهذه الجيف!! أما كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام؟! خلوا سبيل من بقي، فخلّي يومئذ عن بقية الأسرى وهم زهاء ألفين، بقول ذلك الرجل<sup>(١)</sup>.

## الأحكام الشرعية

**الحكم الأول:** ما المراد بـ ﴿الذين كفروا﴾ في الآية الكريمة؟

اختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى: ﴿الذين كفروا﴾ على قولين:

١ - القول الأول: أن المراد بهم المشركون الكفار عبدة الأوثان. وهذا مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما.

٢ - القول الثاني: أن المراد بهم كل من خالف دين الإسلام من مشرك، أو كتابي إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة، فيدخل فيه كل الكفار بدون استثناء وهو ظاهر الآية، واختيار جمهور المفسرين.

قال ابن العربي: وهو الصحيح لعموم الآية فيه، والتخصيص لا دليل عليه.

(١) انظر القصة في تفسير القرطبي ٢٢٦/١٦.

## الحكم الثاني: ما المراد من قوله تعالى: ﴿ فضرب الرقاب ﴾ في الآية الكريمة؟

ذهب (السدي) وجمهور المفسرين إلى أن المراد منه القتل.  
وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد منه (قتل الأسير صبراً).

والراجح هو الأول، لأن الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿ فضرب الرقاب حتى إذا نخسهم فشدوا الوثاق ﴾، قد جعلت (الإنخان) وهو الإضعاف لشوكة العدو غايةً لضرب الرقاب، فأين هو قتل الأسير صبراً؟ مع العلم بأنه إنما يقع في الأسر بعد إنخائه وضعفه، فيكون قول جمهور المفسرين هو الأرجح، بل هو الصحيح.

## الحكم الثالث: ما المراد من الفداء وما هي أنواعه؟

ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد من المفاداة العتق أي عتق الأسير.

وذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد إطلاق سراح الأسير في مقابل ما يأخذه المسلمون منهم. وقد يكون المقابل (أسرى) من المسلمين عند الكفار بطريق التبادل.

وقد يكون المقابل (مالاً) أو عتاداً يأخذه المسلمون في نظير إطلاق الأسرى.

وقد يكون العوض (منفعة) كما كان في غزوة بدر، فقد كان من ليس عنده مال يفدي به نفسه أمره عليه الصلاة والسلام أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة.

فالمراد من الفداء كل ما يأخذه المسلمون من أعدائهم من مال، أو عتاد، أو منفعة، أو مبادلة أسرى بأسرى وغير ذلك<sup>(١)</sup>.

(١) انظر القرطبي ٢٢٨/١٦، وابن الجوزي ٣٩٧/٧.

## الحكم الرابع: ما معنى قوله تعالى : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾؟

اختلف المفسرون في معنى الآية الكريمة على عدة أقوال:

( أ ) قال ابن عباس: حتى لا يبقى أحد من المشركين يقاتل.

(ب) وقال مجاهد: حتى لا يكون دين إلا دين الإسلام.

(ج) وقال سعيد بن جبير: حتى ينزل المسيح بن مريم وحيثُ ينتهي

القتال.

والقول الأخير ضعيف، لأن نزول عيسى بن مريم ليس في الآية ما يدل عليه، وإنما يؤخذ من الأحاديث الشريفة، فنزوله يدخل الناس في الإسلام ولا يبقى على ظهر الأرض كافر، كما دلت عليه السنة المطهرة، ولكن الآية ليس فيها ما يشير إلى أن هذا المراد من قريب أو بعيد، وما قاله ابن عباس ومجاهد أصح وأظهر.

ومما يدل على أن المراد بالآية الكريمة ظهور الإيمان، واندحار الكفر بحيث تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾.

## الحكم الخامس: هل يجوز قتل الأسير؟

اتفق الفقهاء على جواز قتل الأسير، حتى قال «الجصاص» لا نعلم في ذلك خلافاً فيه، وقد تواترت الأخبار عن النبي ﷺ في قتله لبعض الأسرى منها:

( أ ) ما روي أن النبي ﷺ قتل (أبا عزة) الشاعر يوم أحد.

(ب) وقتل (عقبة بن أبي معيط) صبياً، و (النضر بن الحارث) بعد الأسر

في بدر.

(ج) وقتل (بني قريظة) بعد نزولهم على حكم (سعد بن معاذ) الذي حكم

فيهم بالقتل، وسبي الذرية.

( د ) وفتح ﷺ خيبر بعضها صلحاً، وبعضها عنوة، وشرط على (ابن أبي

الحقيق) ألا يكتم شيئاً، فلما ظهر على خيانتة وكتمانه قتله عليه السلام.

(هـ) وفتح مكة وأمر بقتل (هلال بن خنظل) و (عبد الله بن أبي سرح) و (مقيس بن حبابة)، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة<sup>(١)</sup>.

فكُلُّ هذه الأخبار تدل على جواز قتل الأسير، ولأن في قتله حسم مادة الفساد في الأرض.

قال الألوسي: (وليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيراً بنفسه، فإن فعل تسان للإمام أن يعزّره، ولكن لا يضمن شيئاً، وإن أسلم الأسارى بعد الأسر لا يقتلهم، لاندفاع شرهم بالإسلام، ولكن يجوز استرقاقهم، فإن الإسلام لا ينافي الرق جزاءً على الكفر الأصلي، بخلاف ما لو أسلموا من قبل الأخذ فإنهم يكونون أحراراً، لأنه إسلام قبل انعقاد سبب الملك فيهم...)<sup>(٢)</sup>.

وقال القرطبي: (وقيل: ليس للإمام أن يقتل الأسير، وقد روي عن الحجاج أنه دفع أسيراً إلى (عبد الله بن عمر) ليقتله فأبى وقال: ليس بهذا أمرنا الله، وقرأ: ﴿حَتَّى إِذَا أَخْتَمَوْهُمْ فَشَدُّوا الْوُثَاقَ﴾

قلنا: قد قاله رسول الله ﷺ وفعله، وليس في تفسير الله للمن والفداء منع من غيره، ولعل ابن عمر كره ذلك من يد الحجاج، فاعتذر بما قال وربك أعلم<sup>(٣)</sup>.

### الحكم السادس: هل يجوز أخذ الفداء من الأسير؟

اختلف الفقهاء في أخذ الفداء من الأسير على أقوال:

أولاً: مذهب الحنفية: أن الأسير لا يُفادى بالمال، ولا يساع لأهل الحرب، لأنه يرجع حرباً علينا، أمّا فداؤه بأسرى من المسلمين فجائز عند الصحابين (أبي يوسف ومحمد) وقال (أبو حنيفة): لا يُفادون بأسرى المسلمين أيضاً.

ثانياً: مذهب الجمهور (الشافعي ومالك وأحمد) جواز أخذ الفداء من

الأسرى.

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/٣٩١ بتصرف.

(٢) روح المعاني للألوسي ٢٦/٤٠ باختصار.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/٢٢٩.

## أدلة الحنفية :

استدل الحنفية على عدم جواز الفداء بما يلي :

( أ ) قالوا: إن الآية الكريمة: ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدَ وَإِنَّمَا فُدِيَ﴾ منسوخة بقوله

تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، ويقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ نُقل ذلك عن مجاهد.

وروي عن (قتادة) أنه قال: نسختها آية الأنفال: ﴿فَإِنَّمَا تُقَاتِلُهُمْ فِي الْحَرْبِ

فَشَرٌّ لَهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾.

ووجه الاستدلال: أَنَّ سورة براءة من آخر ما نزل، فوجب أن يُقتل كل

مشرك، إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان، ومن يؤخذ منه الجزية، والمتأخر ينسخ المتقدم كما هو المعلوم من أصول الشريعة الغراء.

(ب) وقالوا: لا يجوز المَنَ ولا الفداء، لأن فيه تقوية لأهل الشرك على أهل

الإسلام، - حيث يرجعون حرباً علينا، وقد أمرنا بتطهير الأرض من الكفر ومن رجس المشركين.

(ج) وقالوا: إن ما روي في (أسرى بدر) منسوخ أيضاً بما تلونا، سيما وأنه

قد نزل العتاب في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخَنَ فِي الْأَرْضِ﴾.

فلا يجوز الاستدلال به على جواز أخذ الفداء.

(د) وقالوا: إن ما كان من النبي ﷺ في صلح الحديبية (أن من جاء منهم

رددناه عليهم) إنما كان في بدء الدعوة، وقد نسخ ذلك، ونهى النبي ﷺ عن الإقامة بين أظهر المشركين وقال: «من أقام بين أظهر المشركين فقد برئت منه الذمة» (١).

## أدلة الجمهور:

واستدل الجمهور على جواز فداء الأسير بعدة أدلة نوجزها فيما يلي:

(١) انظر تفصيل الأدلة في تفسير الجصاص، والقرطبي، والألوسي.

( أ ) قوله تعالى : ﴿ فَشَدُّوا الرِّبَاطَ فَإِنَّمَا مَنَّا بَعْدُ ، وَإِنَّمَا فِدَاءٌ ﴾ فقد أجازت الآية الكريمة الفداء مطلقاً بدون قيد ولا شرط، فلإمام أن يمن أو يفدي، أو يسرق، عملاً بالآية الكريمة .

( ب ) وقالوا: إن الآية محكمة ولا نسخ فيها، لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ، والجمع ممكن فإن آية براءة وهي قوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ أمر لنا بقتل المشركين عند اللقاء، فإذا وقعوا في الأسر كففنا عن القتل إلى المن أو الفداء عملاً بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ ﴾ .

( ج ) واستدلوا أيضاً بأن النبي ﷺ فادى أسرى بدر بالمال، ومن لم يكن عنده مال منهم أمره عليه السلام بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، وهذا قد ثبت بفعله عليه الصلاة والسلام .

( د ) واستدلوا بما روى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال : ( أسرت ثقيف رجلين من أصحاب النبي ﷺ وأسرا أصحاب النبي ﷺ رجلاً من بني عامر بن صعصعة فعربه النبي ﷺ وهو في الأسر فقال الأسير: علام أحبس؟ فقال: بجزيرة حلفائك، فقال: إني مسلم، فقال النبي ﷺ: لو قتلها وأنت تملك أمرك لأقلحت كل الفلاح، ثم مضى رسول الله ﷺ فناداه الأسير، فقال: إني جائع فأطعمني! فقال النبي ﷺ نعم هذه حاجتك . . . ثم فداه بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما<sup>(١)</sup> .

قالوا: فهذا دليل على جواز فداء المسلم بغيره من المشركين .

( هـ ) واستدلوا بما رواه مسلم بن عمران عن الحصين أن رسول الله فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين<sup>(٢)</sup> .

( و ) واستدلوا بما رواه مسلم أيضاً عن (إياس بن سلمة) عن أبيه قال :

(١) تفسير آيات الأحكام للسايس ٤/٧٥، وانظر الحصان ٣/٣٩٢ .

(٢) لعل الحديث يشير إلى القصة السابقة التي رواها ابن المبارك .

(خرجنا مع أبي بكر رضي الله عنه، وأمره علينا رسول الله ﷺ . . . إلى أن قال: فلفيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق فقال: يا سلمة هب لي المرأة - يعني التي نقله أبو بكر إياها - فقلت: يا رسول الله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً.

ثم لفيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق، فقال: يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك!! فقلت: هي لك يا رسول الله، فوالله ما كشفت لها ثوباً. . . فبعث بها رسول الله ﷺ ففدى بها ناساً من المسلمين أسروا بمكة<sup>(١)</sup>.

(ز) واستدلوا بالمعقول وهو: أن تخليص المسلم أولى من قتل الكافر، للاتنفاع بالمسلم، لأن حرمة عظيمة، وأما الضرر الذي يعود إلينا بدفعه إلى المشركين، فيدفعه نفع المسلم الذي يتخلص من فتنهم وعذابهم، وضرراً واحداً يقوم بدفعه واحد مثله فيتكافئان، وتبقى فضيلة تخليص المسلم وتمكينه من عبادة الله تعالى، وفيها زيادة ترجيح.

هذه خلاصة أدلة الجمهور بالنسبة (للفداء) سواء كان بالمال أو بالرجال على ما عرفت.

وأما (المن) على الأسارى وهو أن يطلقهم إلى دار الحرب من غير شيء فلا يجوز (عند أبي حنيفة، ومالك، وأحمد) وأجازه الإمام الشافعي لما ثبت أن النبي ﷺ من على (ثمامة بن أنال) سيد أهل اليمامة ثم أسلم وحسن إسلامه، وقال ﷺ: «لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء التثني - يعني أسارى بدر - لتركهم له»<sup>(٢)</sup>. فقله ﷺ ذلك دليل على جواز المن على الأسرى.

الترجيح: وبعد استعراض هذه الأدلة من الفريقين نرى أن الأرجح أن يفوض أمر الحرب لأهل الاختصاص من ذوي الرأي والبصر، يفعلون ما تقضي به المصلحة العامة، فإن رأوا قتل الأسرى قتلهم، وإن رأوا أخذ الفداء بالمال أو بالأسرى فادوهم، وإن رأوا إبقاءهم في الأسر تركوهم تحت أيدي المسلمين،

(١) رواه مسلم في الجهاد برقم (١٧٥٥)، وانظر تمام الحديث في صحيح مسلم ٣/١٣٧٥.

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب المغازي ٧/٣٢٣ من فتح الباري.

فيتترك لهم تقدير المصلحة حسب الظروف التي هم فيها، وهذه من (السياسة الحكيمة) التي ينبغي أن تتوفر في قادة المسلمين.

والرسول ﷺ قد فعل ذلك كله، فأسر من أسر، وقتل من قتل، وفادى من فادى منهم، وأطلق سراح من أطلق دون مالٍ ولا فداء. وما نزل من آيات العتاب في سورة الأنفال فإنما كان بتوجيه إلهي حكيم – حسب المصلحة أيضاً – حيث نزلت هذه الآيات الكريمة في (غزوة بدر) وهي أول حرب يخوضها المسلمون مع أعدائهم، فكانت المصلحة تقضي بترجيح جانب الشدة على جانب الرحمة، بالقتل، والإثخان، وإراقة الدماء، حتى لا يطمع المشركون بالإقدام على حرب المسلمين مرة أخرى، وحتى تُقْلَمَ أطراف الكفر منذ اللحظة الأولى، فإذا علم المشركون أن لا رحمة في قلوب المسلمين عليهم، هابوهم وتخوفوا من الإقدام على حربهم، وهذا ما كان قد أشار به الفاروق عمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ ونزل القرآن موافقاً لرأيه.

ولما كثر عدد المسلمين، وقويت شوكتهم، وأصبحت الدولة بأيديهم نزل القرآن الكريم بالمنّ والفداء على الأسرى، بعد أن توطدت دعائم الدولة الإسلامية، وأصبح صرح الإسلام شامخاً عتيداً، فكان المنّ عن قوّة، لا عن ضعف، وعن عزة، لا عن ذلة واستكانة، وهذا وجهٌ وجيه في الجمع بين الأدلة.

فالمصلحة العامة هي التي ينبغي أن تراعى في مثل هذه الحالات، والحربُ مكر وخديعة، ولا عزة للضعفاء المستكينين.

### ما ترشد إليه الآيات الكريمة

١ – المؤمن يقاتل في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، فينبغي أن يكون شجاعاً مقداماً.

٢ – إثنان العدو بكثرة القتل فيهم والجروح، من أجل إضعاف شوكتهم وتوهم قوتهم.

- ٣ - الحرب في الإسلام حرب مقدسة، غرضها تطهير الأرض من رجس الكفرة المشركين.
- ٤ - الاكتفاء بالأسر بعد إتيان العدو مظهر من مظاهر رحمة الإسلام بأعدائه.
- ٥ - إطلاق سراح الأسرى بدون عوض، أو أخذ الفداء منهم، ينبغي أن تراعى فيه مصلحة المسلمين.
- ٦ - الجهاد في سبيل الله ماضٍ في هذه الأمة حتى لا يبقى على وجه الأرض مشرك.
- ٧ - الله جل ثناؤه قادر على أن ينتقم من المشركين، ولكنه أراد أن يُنبئ المؤمنين أجر الاستشهاد في سبيله.
- ٨ - الحياة ابتلاء للمؤمن والكافر، يتلى بعضهم ببعض ليعذب الكافر ويثيب المؤمن.



## حكمة التشريع

أقر الإسلام الحرب - مع علمه بما تجره على البلاد من ويلات ونكبات - لضرورة وقائية، وعلاج اضطراري، لا مناص منه لمجابهة الطغيان، ودفع الظلم والعدوان، وتطهير الأرض من رجس المشركين الغادرين، على حد قول القائل:

إذا لم تكن إلا الأسنّة مركباً فلا بدّ للمضطّر إلا ركوبها

ولكنّ الإسلام في الوقت الذي يدعوه فيه إلى الجهاد، ويحض على القتال، ويبيح الحرب كضرورة من الضرورات، تجده يأمر بالرحمة والشفقة في (معاملة الأسرى) الواقعين في أسر العبودية، فيحرّم تعذيبهم أو إيذاءهم، كما يحرم التمثيل بالقتلى، أو الإجهاز على الجرحى، أو تقتيل النساء والصبيان.

إن الغرض من الجهاد ليس إراقة الدماء، وسلب الأموال، وتخريب الديار، ولكنه غرض إنساني نبيل، هو حماية المستضعفين في الأرض، ودفع عدوان الظالمين، وتأمين الدعوة، والوقوف في وجه الاستعلاء والطغيان كما قال جل ثناؤه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَلَكْتُمْ سَوَاحُجُ، وَبَيْعُ، وَصَلَوَاتُ، وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

ولقد كان من وصايا النبي الأكرم ﷺ، للجند والجيش المجاهدين في سبيل الله، أن يأمرهم بطاعة الله، وعدم الغدر والخيانة حتى بالأعداء.

فقد روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «أَغْرَوْا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَن كَفَرَ بِاللَّهِ، أَعْرَزُوا وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدَرُوا، وَلَا تَمَثَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِدَاءً».

وكذلك فعل الخلفاء الراشدون، ففي وصية أبي بكر رضي الله عنه لأسامة بن زيد حين بعثه إلى الشام: (لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا

طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذهبوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع - يريد الرهبان - فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له).

وهكذا كانت رحمة الإسلام في الحرب، ممثلة بمبادئه الإنسانية الرحيمة، فالإسلام حين يبيح الحرب يجعلها مقدّرة بقدرها، فلا يقتل إلا من يقاتل في المعركة، وأما من تجنّب الحرب فلا يحل قتله أو الاعتداء عليه: **﴿مَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾**.

**﴿قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْسُقُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾**.

لقد حرّم الإسلام قتل النساء، والشيخوخ، والأطفال، وقتل المرضى والرهبان. وحرّم (المثلة) والإجهاز على الجريح، وتبّع الفأر، وتحريق البيوت والأشجار، وذلك تمثيلاً مع نظره الإنسانية المثلى، في حماية المستضعفين، ودفع الظلم والعدوان، ولأن الحرب كعملية جراحية، يجب ألا تتجاوز موضع المرض من جسم الإنسان.

فلا عجب أن نرى هذه الرحمة ممثلة في تعاليم القرآن، تدعو إلى الإحسان إلى الأسرى ثم إلى العنّ عليهم والفداء، حتى تنتهي المعركة لما فيه خير الإنسانية بانتصار الحق واندحاز الباطل وصدق الله العظيم: **﴿فَبِمَا مَنَّا بَعْدَ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾**.

فلله ما أرحم الإسلام! وما أسمى مبادئه وأحكامه!!

\*\*\*